المفارقة في شعر إبراهيم طوقان السياسي

(دراسة نقدية)

دكتوره

جواهر بنت عبد الله العصيمي

جامعة الباحة-كلية العلوم والآداب

بالمندق

قسم اللغة العربية

مقدمة

تمكننا نظرة في النتاج النقدي العربي من استجلاء قلة الدراسات والأبحاث التي تخوض في موضوع المفارقة، إلا أن هذه القلة لا تعني انعدام الاهتمام النقدي بهذا المصطلح، وبتجليات المفارقة في الأدب: شعره، ونثره.

ومن أبرز الدراسات العربية التي تناولت المفارقة: كتاب (النقد التطبيقي التحليلي) لعدنان خالد عبد الله، وبحث عنوانه (نظرية المفارقة) لخالد سليمان، فضلًا عن مجموعة غير كبيرة من الأبحاث والمقالات التي اتكأت بشكل أساسي على طرح هؤلاء، واختلف الباحثون في تحديد مفهوم المفارقة، بيد أنهم اتفقوا على كونها صعبة التحديد، ومشكلة في تعريفها، وتأطيرها(١).

ومن الباحثين من يرى أن المفارقة هي نظرة في الحياة ترينا أن خبراتنا عرضة إلى تفسيرات متنوعة، ليس فيها واحدة صحيحة دون سواها، وبناء على هذا تكون المفارقة طريقة في قول الأشياء، تريد أن تترك السؤال مطروحًا حول المعنى المقصود فعلًا، فالمغزى مؤجل حقًّا، وثمة متوالية لا نهائية من التفسيرات الممكنة، إنها لعبة عقلية رفيعة ومعقدة، إنها استراتيجية الإحباط، واللامبالاة، وخيبة الأمل، لكنها سلاح هجومي فعال، وهذا السلاح هو الضحك الذي يتولد عن التوتر الحاد، والضغط الذي لا بد من أن ينفجر(٢).

---

(١) مصلح عبد الفتاح النجار: المفارقة في شعر عرار، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد ٣٤، العدد١، ٢٠٠٧م، ص١٥٧.

(٢) ينظر: قاسم، المفارقة في القص العربي، مجلة فصول، ع٣ و٤، مج٧، ص١٣٣.

أما متى وجدت المفارقة، فباعتقادي أنها وجدت مع الإنسان حيث "حصلت الاستجابة إليها قبل أن يطلق عليها اسم، وقبل أن يوجد لها مفهوم، وأما الكلمة فقد كانت موجودة قبل أن تطبق على المفهوم"(١)، أي: كانت المفارقة في اللحظة التي وقع فيها أمر غير محتمل الحدوث، أو بشكل أدق: غير مألوف، بمعنى أن المفارقة وجدت في الوقت الذي أشار فيه الإنسان إلى الفرق بين ما ينتظر حدوثه وبين ما يحدث فعلًا، ثم بدأ الإنسان يتنبه إلى أنه كلما ازداد الفرق كبرت المفارقة"(٢).

أما ميادين المفارقة فهي ساحات الحياة البشرية، وفي كل نامة، أو حركة، أو كل ما تحمل روح المفارقة، وبالذات فإن المجالات المهمة التي سرعان ما تثير المفارقة هي ... المجالات التي يودع فيها أكبر رصيد عاطفي: الدين، الحب، الأخلاق، السياسة، التاريخ، وسبب ذلك بالطبع أن هذه المجالات تتميز بانطوائها على عناصر متناقضة: الإيمان والحقيقة، الجسد والروح، العاطفة والعقل، الذات والآخر، ما يجب وما هو واقع، النظرية والتطبيق، الحرية والحاجة(٣)، وهذا ما يوضح –بداية– لماذا تركزت سخرية إبراهيم ومفارقاته في قصائده السياسية أكثر ما تركزت.

(١) المصدر السابق، ص٢٧.

(٢) المصدر السابق، ص٦٤.

(٣) قاسم، المفارقة في القص العربي، ص٦٦ وما بعدها.

السيرة الذاتية للشاعر

مولده، ونسبه، ودراسته:

ولد الشاعر إبراهيم عبد الفتاح داود الآغا طوقان عام ١٣٢٣ للهجرة (١٩٠٥م) في مدينة نابلس، قلب فلسطين الشمالي، التي تقع ما بين درجتي ٣٢، ٣٣ شمال خط الاستواء، حيث أقامها الرومان وأطلقوا عليها اسم (نيابوليس)؛ تخليدًا لاسم أسرة فلافيانيا بوليس الروماني، ويكتنفها من الشرق والغرب جبلان هما: عيبال، وجرزيم، وتعاقبت عليها الأمم من رومان، وسامريين، ومسلمين، وصليبيين، وشهدت قادة عسكريين وحروبًا عديدة، فعرفت صلاح الدين، والظاهر بيبرس، ونابليون، وأحمد باشا الجزار، والعثمانيين، وحملة إبراهيم باشا، فالبريطانيين، والأردنيين، والإسرائيليين.

وتعتبر مدينة نابلس التي أطلق عليها اسم (جبل النار) إبان حملة نابليون، مركزًا صناعيًّا، وتجاريًّا، ووطنيًّا منذ بداية هذا القرن(١).

وينتسب إبراهيم إلى عائلة معروفة في المدينة، يمتد حضورها في مدينة نابلس إلى عام ١٦٥٦م، حيث حل التاجر رحال طوقان المتوفى بعد عقدين من حلوله في المدينة(٢).

وبمرور السنين أثبتت عائلة طوقان حضورها وسيطرتها في المدينة والناحية؛ مما راكم

---

(١) لمزيد من المعلومات عن مدينة نابلس راجع: مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، منشورات دار الطيعة، بيروت، ١٩٦٥م؛ وإحسان النمر، تاريخ جبل النار (٤ أجزاء) نابلس، ١٩٧٥م.

(٢) للتوسع راجع: مصطفى العباسي، تاريخ آل طوقان في جبل نابلس، مطبعة دار المشرق للترجمة والنشر، شفا عمرو، ١٩٩٠م، ص١٥-٥٥.

الثارات والعدوات مع عائلات كان لها نفوذها في الناحية، كآل النمر، وجرار، وعبد الهادي، والجيوسي. وآل طوقان -العائلة الميسورة الحال- عائلة محافظة -كغيرها من العائلات التي تمسكت بالتقاليد الإقطاعية، فيما يتعلق بالنواحي الاجتماعية والاقتصادية-، وأن عبد الفتاح آغا طوقان -والد الشاعر- من أعيان المدينة ونشطائها الوطنيين الذين تعرضوا للنفي؛ الأمر الذي جعله عضوًا منتخبًا في قيادة حزب الكتلة الوطنية في الخامس من تشرين الأول ١٩٣٥م، وأول الموقعين ضمن هيئة الاجتماع المنعقد في نابلس في آب ١٩١٣م ضد مشروع الأصفر -وهو قرار بيع الأراضي المدورة بالمزاد العلني، وعدم إعادتها للمزارعين الذين أخذت منهم بطرق استبدادية-، وجعله عضو المؤتمر العربي الفلسطيني السابع، واللجنة التنفيذية عام ١٩٢٨م، وكان من ضمن الأعضاء الفلسطينيين في المؤتمر العربي القومي في بلودان - سوريا ١٩٣٧م[١].

تلقى إبراهيم علومه الابتدائية في المدرسة الرشادية الغربية في نابلس من ١٩١٤-١٩١٨م، وكان من شيوخه ومدرسيه: الشيخ إبراهيم أبو الهدى الخماش، والشيخ فهيم هاشم. وفي العام ١٩١٩م دخل إبراهيم مدرسة المطران في القسام الداخل بمدينة القدس، حيث كان أخوه أحمد تلميذًا في الكلية الإنجليزية بالمدينة، وتعرف وهو في القدس بالأستاذ نخلة زريق الذي فتح عيون طلابه على كنز الشعر العربي، وفي العام ١٩٢٣م انطلق إلى الجامعة الأمريكية ببيروت للدراسة، حيث أمضى ستة أعوام بعيدًا عن نابلس وأجوائها الاجتماعية المغلقة، ثم عاد إليها ليعمل مدرسًا في كلية النجاح (١٩٢٩-١٩٣٠م)، بعدها عاد إلى بيروت ليعمل مدرسًا في الجامعة التي تخرج فيها،

(١) راجع: بيان نويهض الحوت، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ص٣١٢.

فدرّس فيها عامين، إلا أنه اضطر -بعد أن زاد عليه المرض- إلى العودة إلى نابلس قاضيًا عامين، خدم خلالهما مدة في دائرة المياه في بلدية نابلس، وفي عام ١٩٣٦م تسلم عمله الجديد مساعدًا لمدير الإذاعة بالقدس، حيث تزوج في العام الذي يليه من سامية عبد الهادي التي أنجبت له: جعفرًا، وعريبًا.

وفي تشرين الأول ١٩٤٠م اضطر إبراهيم لترك الإذاعة والسفر فورًا إلى العراق ليعمل مدرسًا في دار المعلمين الرستمية، إلا أن المرض قد استفحل وتمكن منه، فنقل إلى المستشفى الفرنسي في القدس، حيث فاضت روحه إلى بارئها في الثاني من أيار ١٩٤١م[١].

ثقافته:

توافرت لإبراهيم طوقان منابع ثقافية ثرية، تمثلت في المدارس، والجامعة، وما شاهده وعايشه من مناخات وطنية وإبداعية واجتماعية مختلفة في وطنه وفي لبنان، بالإضافة إلى معرفة من التقاهم وعمل معهم، فكانت الحياة مصدرًا مهمًّا من مصادر ثقافته المتنوعة.

وعرف إبراهيم غير لغته كالإنجليزية والفرنسية معرفة كافية، كما يبدو أنه كان يعرف شيئًا من التركية والألمانية والإسبانية، وتمكن من الاطلاع على أمهات كتب التراث العربي بشتى مكوناتها، وتابع نتاج معاصريه من شعراء وأدباء، وتقلب في العمل

(١) لمزيد من المعلومات عن إبراهيم راجع: فدوى طوقان، أخي إبراهيم؛ وعمر فروخ، شاعران معاصران، الطبعة الأولى، منشورات المكتبة العلمية ومطبعتها، بيروت، ك١، ١٩٥٤م، ص١٧-١٨.

الإداري والإذاعي والتعليمي؛ مما وفر لتجربته الثقافية تكاملًا ناضجًا، عدا احتفاله الكبير بالقرآن الكريم، الذي كان يكثر من تلاوته ويطيل التأمل فيه، "ولقد كان من أكبر الأسباب التي أعانته على أن يقول الشعر، فيجيده بالقياس إلى صغر سنه: كثرة حفظه للشعر المنتخب، واحتفاله الكبير بالقرآن الكريم، ولم ينفك إبراهيم منذ صغره يقرأ القرآن، ويطيل التأمل فيه، حتى أصبح له ذلك ديدنًا، لا يعوقه عنه عائق، ولا يصرفه عنه تقلبه في مختلف معاهد العلم الأجنبية فيما بعد، ولم تكن تلاوته للقرآن الكريم تلاوة سطحية عابرة، بل كان يتجه إليه بقلبه وروحه، ويحس له في نفسه وقعًا عجيبًا، وأثرًا بعيدًا، فيهزه إعجازه هزًّا، وتفعل فيه بلاغته فعل السحر، ويستولي عليه خشوع عميق، ويصرفه عن كل ما يحيط به"(١).

وتذكر فدوى طوقان أن مصحفًا صغيرًا كان يحتفظ به إبراهيم في جيب سترته يتناوله كل حين(٢). وأفاد إبراهيم من علاقته مع الدكتور نيكل البوهيمي حين باشرا العمل لإنجاز تصحيح مخطوطة كتاب الزهرة لابن داود الأصفهاني، وتعليق حواشيه، وتنظيم فهارسه. والمطلع على أشعار إبراهيم ورسائله لصديقه عمر فروخ، وأحاديثه الإذاعية، يرى مدى سعة اطلاع إبراهيم، وإحاطته بثقافة متنوعة ومعارف متعددة، لا تتأتى إلا لمثقف كبير(٣).

وفيما يخص منابع ثقافته ومظاهرها، فمنذ طفولة إبراهيم وجده لأبيه ذواقة الشعر

---

(١) فدوى طوقان، أخي إبراهيم، ص١٠.

(٢) راجع: المصدر السابق، ص٢٥.

(٣) راجع: البدوي الملثم، إبراهيم طوقان في وطنياته ووجدانيته، ص٦٨، ٩١، ١٥٧؛ وعمر فروخ شاعران معاصران، ص٧، ٢٤، ٢٩، ٣٠، ٣٩، ٤٩، ٥٣، ٦١، ٧٣، ٧٤، ٧٦.

والزجل الشعبي، يستمع وإياه إلى قصص عنترة، وأبي زيد الهلالي، وسيف بن يزن، تلك القصص التي كانت تقرأها أم إبراهيم لجده في أمسيات الصيف، أو ليالي الشتاء، فيرسخ في ذهن الصغير بعض الشعر، أو الطرافة، وتنقدح عن فكره نكتة، أو وصف لحادث حدث في البيت. كما أن قراءة القرآن طيلة شهر رمضان المبارك عادة مباركة لدى إبراهيم، وهو يتلوه على متن كريمة، عائدًا في تفسير معانيه وكشف أسراره إلى كتب البلاغة، وسيد المفسرين الزمخشري، أو الطبري، فينسى نفسه بين الأحاديث والروايات(١).

وفي المدرسة الرشادية بنابلس غرس الشيخان: الخماش، وفهمي هاشم، في نفس إبراهيم وأترابه الروح العربية المضيئة، والثقافة الإسلامية الواعية، والمبادئ الوطنية القومية المنتمية. وفي خلال المطران لم يتوان نخلة زريق عن تحبيب اللغة العربية والشعر القديم إلى إبراهيم، من خلال المحاضرات والندوات التي كانت تعج بمجالس الشعر والنثر واللغة.

أما بيروت فكانت كعادتها مهدًا للتفاعل الثقافي والأدبي، إلى جانب مساقات الجامعة التي تشربها إبراهيم، وعمقت معرفته لأمهات موروثنا ولغتنا، ومكنته من السيطرة على اللغتين الإنجليزية والفرنسية، اللتين عرف أبجديتهما في المطران، ولهج إبراهيم بشعر مراهق باللغات العربية والفرنسية والإنجليزية، من مثل قوله:

عـــدسٌ عـــدسٌ عـــدسٌ عـــدسٌ وبـــــه الأولاد قـــــد انغمســـــوا

قـــاموا قعـــدوا فـــزوا قمـــزوا لمـــــا أطعمنـــــاهم "غـــــولا"

(١) انظر: فدوى طوقان أخي إبراهيم، ص٧، ٨.

ســـــنتين درســـــنا فرنســـــاوي (ديكتيـة) مـع ميسـيو (صـيداوي)

والآن زهقنـــــــــــا وي وي وي فهلّـــــم نشـــــدّ الأرحـــــالا

وفي الجامعة تعرّف إبراهيم إلى مجموعة من الطلبة الشعراء الماجنين، وأنشأوا حلقة أدبية أطلقوا عليها (دار الندوة)، كانوا يتحلقون ليشعلوا أجواء الجامعة شعرًا فاضحًا ومطارحات ناقدة عارية، حيث كان هؤلاء قد اتخذ كلٌّ منهم اسم شاعر قديم، فإبراهيم طوقان أطلق على نفسه: العباس بن الأحنف، ووجيه البارودي: ديك الجن الحمصي، وحافظ جميل: أبا نواس، وعمر فروخ: صريع الغواني، وكان نديم البارودي كاتب دار الندوة[١].

أما حياته العملية في الجامعة وكلية النجاح فقد رسخت معلوماته الثقافية، وعملت على تفجير آفاقها، وتأصيلها، وتعميق رؤيته النقدية.

وفي الإذاعة كان ثمة مجال للاطلاع على كل الأحاديث، والمقالات، والندوات التي كانت تبثها الإذاعة، ناهيك عما كان يعده إبراهيم بنفسه من روايات، وقصص، وتمثيليات، وأناشيد، وأحاديث، معتمدًا على الآية، والحديث، والمثل[٢] السائر؛ لإيصال فكرته الهادفة[٣]، ولا يفوتنا أن نشير إلى أن إبراهيم قد تواصل مع شعراء

---

(١) انظر: عمر فروخ، شاعران معاصران، ص٣٠.

(٢) لمزيد من المعلومات عن مدينة نابلس راجع: مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، منشورات دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٥م؛ وإحسان النمر، تاريخ جبل النار (٤ أجزاء)، نابلس، ١٩٧٥م؛ ومصطفى العباسي، تاريخ آل طوقان في جبل نابلس، مطبعة دار المشرق للترجمة والنشر، شفا عمرو ١٩٩٠م، ص١٥-٥٥.

(٣) انظر: سمير شحادة، حسان فلسطين، ص٢٢.

وطنه، ورجالاته الفكرية والسياسية والاجتماعية والإعلامية[١].

والمطلع على أعداد جريدة فلسطين يجد أن إبراهيم قد نشر كثيرًا من المقالات والخواطر في أعدادها المتفرقة منذ عام ١٩٢٩م حتى ١٩٤١م[٢]، بالإضافة إلى ما كان ينشره في الصحافة المحلية والعربية.

كما أن إبراهيم على دراية بكتب التاريخ، ككتاب الروضتين في أخبار الدولتين، والكامل لابن الأثير، وأنه ذو بصيرة نقدية حادة، ومثل ذلك ما تضمنته رسالته إلى صديقه عمر، التي تطرق فيها بالنقد لإحدى قصائد شوقي، والتي جاء فيها: (خرزات مسك أو فصوص الكهربا)[٣].

وتعج رسائله إلى صديقه عمر فروخ باقتباسات وإشارات، تدلل على شمولية اطلاعه وثقافته، غير ما يشهد له به عمر فروخ من اطلاع ومعرفة معمقة، كان إبراهيم أكثر توفرًا على مطالعة شعر شوقي، وحافظ، والبارودي، من الشعراء المعاصرين لنا، ثم على شعراء العصر العباسي خاصة كأبي نواس، والعباس بن الأحنف، والبحتري،

(١) انظر: د. قسطندي شوملي، الصحافة العربية في فلسطين، الجزء الأول، جمعية الدراسات العربية، القدس، ١٩٩٠م، ص٣٠١-٣٠٢، حيث كتب إبراهيم ثلاثين مقالة وقصيدة في هذه الصحيفة.

(٢) انظر قصيدة (رد على رئوبين شاعر اليهود)، ص٧٨-٧٩؛ ديوان إبراهيم، أعمال شاعر فلسطين: إبراهيم طوقان، دار القدس، بيروت، فبراير ١٩٧٥م.

(٣) انظر: عمر فروخ، شاعران معاصران، ص٧.

وابن المعتز، وسبط بن التعاويذي[١].

وجاء في رسالة كتبها لصديقه عمر فروخ اقتبسها من ألف ليلة وليلة، كما أشار فيها إلى آيات كريمات من سورة الفتح، وفي رسالة أخرى تضمنت كلمات من كتاب لتوفيق الحكيم، هو: تاريخ حياة معدة[٢].

آثار إبراهيم الشعرية:

أما آثاره الشعرية فهي: ديوان شعر ضم (١٢٠) قصيدة، صدر عن دار القدس في شباط ١٩٧٥م، حيث تقدم الديوان ما كتبته فدوى عن أخيها إبراهيم، وكان ختامه دراسة مكثفة بعنوان: نظرة في شعر إبراهيم طوقان للأستاذ الكبير إحسان عباس.

وتجدر الإشارة إلى أن كثيرًا من قصائد إبراهيم –وهي تشكل ديوانًا ضخمًا– لم تجمع أو تطبع؛ لخروجها على الذوق العام، ولما تضمنها من عري وتصاوير فاضحة، بالإضافة إلى (الشرارات)، وهي نتاج (شلة الأنس) أصحاب دار الندوة، وهي قصائد فاضحة، قاسية لاذعة، فيها من رغوة الشباب وشبقه الكثير[٣]، ويذكر عمر فروخ أن بعض أهل الندوة قد تجاوز في شرارته على الإطلاق، بقدر ما كان مشاركًا فاعلًا في الغزل المؤنث، هذه الشرارات في الغزل المؤنث، وفي فتيات كن في الجامعة الأمريكية، ومن خارج الجامعة الأمريكية، غير أن في هذا الدفتر أربع قطع في الغزل المذكر، استقل

(١) انظر المصدر السابق، ص٢٣-٢٤.

(٢) راجع: عمر فروخ، شاعران معاصران، ص٣١.

(٣) المصدر السابق، ص١٠٠.

بها وجيه البارودي وحده، وظل إبراهيم إلى آخر حياته لم ينظم في الغزل المذكر قط[١].

ويذكر أبو سلمى الذي شكل مع إبراهيم ورئيف خوري وخليل البديري وعارف العزوني ورجا حوراني جمعية أدبية في القدس اسمها (عصبة القلم)، أنه هو وإبراهيم حررا صفحة أدبية أسبوعية تصدر في إحدى صحف يافا، كما كانا بين الحين والآخر يكتبان شعرًا خاصًّا أقرب للمجون واللهو، لعل أيسرها قصيدة مطلعها: (يا فتاتي أنت فتنة)[٢]، بالإضافة إلى القصيدة التي كتبها أبو سلمى ومهرها باسم إبراهيم، التي مطلعها:

يا صـــــبايا كفـــــر كنـــــة آه مـــــــن أعينكنـــــــه

وهذا مثال آخر يشهد على تحرر ما كتبه إبراهيم، كما شهد على ما أشار إليه أبو سلمى من المطارحات الشعرية الخاصة، ما قاله إبراهيم عندما جاء من نابلس إلى القدس لزيارة صديقه الشاعر أبي سلمى، واعتمر غرفته فلم يجده فيها، فتولاه غم شديد، وفتح كتاب (الأغاني)، وكتب على إحدى حواشيه هذه الأبيات برسم صديقه أبي سلمى:

آخـــــــي المقـــــــدر إني أحـــــم دهـــــري عليكـــــا!
هربـــــت نعلـــــي هـــــلا أعـــــــــرتني نعليكـــــــا؟
أدعـــــو عليـــــك بـــــ(حسناء) لا تحـــــــــن إليكـــــــا![٣]

---

(١) انظر: البدوي الملثم، ص١٤٠.

(٢) المصدر السابق، ص١٦٣.

(٣) انظر: البدوي الملثم، ص١٧٠.

وثمة نموذج من شعر إبراهيم الماجن الذي لم يُعثر عليه في ديوانه، في جارة فلاحة في رام الله اسمها (بهاء)، وكانت على جانب من الجمال، فنظم فيها طوقان قوله:

(بهـــا) يا جنـــة الحســـن ويا كـــوثرة الصـــافي!
ويا أفضـــل بـــين الغيـــد مـــن عشـــرة آلاف
فـــديتك حـــق للهمـــز ة أن توضـــع في الكـــاف![1]

ومن الطريف ذكره أن إبراهيم أول من استعمل الكلمة العبرية في قصائده الماجنة، حيث قال بيتًا أثبته الشاعر حنا أبو حنا هو:

(جـاءت لنـا مـن غـير (مخنسـايم) فظهـر الأرنـب وهـو جـاثم

والملاحظ أن إبراهيم يعتمد على الألفاظ البذيئة الخشنة في قصائده (الخارجة عن القانون)، إلى جانب توظيفه مثل هذه القصائد اللاذعة في هجائه السياسي، ولم يقم وزنًا للمكانة الاجتماعية لمن يسلط عليه نيران هجائه، فقد هجا المفتي، وإسحاق درويش، وإميل الغوري، وغيرهم، بشعر حافل بالإشارات الجنسية، ولعل أخف ما يمكن إيراده هنا، هذا البيت الذي قاله في أحد الرجال الذين أشاحوا عنه:

أشـــاح بوجهـــه فـــأدرت (...) وتعجبـــني مراعـــاة النظـــير

ومن الجدير بالذكر، أن شقيقة الشاعر قد نبهت إلى قصائد زجلية عديدة، كتبها إبراهيم في مناسبات خاصة جدًّا، ولم يعثر البحث إلا على مقطوعة وردت على لسان الشاعر محمد علي الصالح، حين سئل عن علاقته بإبراهيم، فقال: "... لقد

(١) انظر: عمر فروخ، شاعران معاصران، ص٣٤-٣٥.

أرسل إليّ في إحدى رسائله شعرًا قاله في الثورة السورية، فكتب يقول:

يا نازلـــين بســـوق المنـــايا عيـــبهم علـــى اللـــي مـــا يبيـــع

والعـــز بظهـــور الســـبايا والعمـــر عنـــد الله وديـــع

حـــوارنا حـــد الـــرزايا منالـــه الســـور المنيـــع"[1]

ولعل ما يبقى -كما يقول الشاعر هولدرلن- هو ما يؤسسه الشعراء، وإبراهيم أسس ما تركه بين أيدينا؛ لننهل منه، أو لننظر فيه.

(١) مقابلة مع محمد علي الصالح، مجلة الفجر الأدبي، ص٦٠، العدد ٥٧، حزيران ١٩٨٥م، القدس.

ما هي المفارقة

لأن كل ما لا تاريخ له يمكن تعريفه –كما يقول نيتشه–، فإن المفارقة التي لم يعرف لها تعريف أو تاريخ نظري، يمكن وضع غير تعريف لها. وبالفعل تراكمت المفاهيم التي حاولت أن تفسر المفارقة، وأن تحددها بتعريف شامل، الأمر الذي جعل مفهوم المفارقة غامضًا، غير مستقر، ومتعدد الأشكال. فكلمة (مفارقة) تختلف من عصر إلى عصر، ومن قطر إلى قطر(١)، وهذا متوقع وطبيعي؛ لأن لكل عصر، أو قطر، أو مجموعة خصوصية تختلف بالضرورة عن غيرها، وهذه الخصوصية تشمل كل المعطيات والبناءات، وتجادلها ما تفرزه داخل ذاك العصر، أو القطر، أو المجموعة، أو حتى الأفراد؛ لما بينهم من فوارق وتباين في المشارب والمواقع والتوجهات. وعليه فإن "التعريف القديم للمفارقة –قول شيء والإيحاء بقول نقيضه– قد تجاوزته مفهومات أخرى؛ فالمفارقة: قول شيء بطريقة تستثير لا تفسيرًا واحدًا، بل سلسلة لا تنتهي من التفسيرات المغيرة"(٢).

وللمفارقة أشكال عدة (البلاغية، الاستخفاف بالذات، هزء المفارقة، المفارقة بالتشابه، المفارقة غير اللفظية، المفارقة الدرامية، غرارة الفارقة، المفارقة غير الواعية، مفارقة تنم عن نفسها، مفارقة الأحداث، المفارقة الكونية، مفارقة التنافر، المفارقة

---

(١) انظر: المتوكل طه، كنوز إبراهيم طوقان، الشبكة العنكبوتية (www.books.google.com.sa)، ص١٣٥.

(٢) دي. سي. ميويك، المفارقة وصفاتها، ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، موسوعة المصطلح النقدي، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م، ص٤٢.

المزدوجة، مفارقة مسرحية، المفارقة الرومانسية)[١]، ولكن علينا أن ندرك أن تعدد أشكال المفارقة، ورحابة معانيها، يجب أن لا يغرينا في أن نسحب -بشكل آلي- مفهوم المفارقة إلى كل ما يشبه المفارقة أو يلامسها، كما "أن ليست كل طريقة في قول شيء لتعني غيره تعد مثالًا على المفارقة .. وبعبارة أخرى: إن العلاقة بين المظهر والحقيقة ليست علاقة تشابه، أو لا تشابه، أو تعادل، بل إنها كما يقول (شفالييه): تضاد، (أو تعارض، أو تناقض، أو تباين، أو تنافر، أو عدم اتساق)[٢]؛ ذلك لأن الميزة الأساس في الفارقة هي تباين بين الحقيقة والمظهر"[٣]؛ ولأن "المفارقة ليست مسألة رؤية معنى (حقيقي) آخر (زائف)، بل مسألة رؤية صورة مزدوجة .. على صفحة واحدة"[٤]؛ لإظهار شدة التضاد، وإبراز عمق الاختلاف بين الصورتين، حيث الضد يظهر (حسنه) الضد.

ويرى "فرويد" أن المفارقة (الهادفة) تكون شديدة القرب من النكتة ... وتقع بين الأصناف الدنيا من الكوميدي .. فهي تحدث لذة كوميدية لدى السامع ... وهي في ذلك تشبه النكات التي (تطلق اللذة بالتخلص من المكبوتات)"[٥]، ولم يركز على الجانب (التعبوي) الذي تقوم به المفارقة الهادفة، بل ركز على الجانب النفسي، وهذا يقودنا إلى نظريتي المحاكاة (أرسطو) والتغريب (برتولد بريخت)، إذ تهدف الأولى

---

(١) المصدر السابق، ص٢٠-٢٥.

(٢) المصدر السابق، ص٤٥ وما بعدها.

(٣) المصدر السابق، ص٤٤.

(٤) دي. سي. ميويك، المفارقة وصفاتها، ص١٦.

(٥) المصدر السابق ص٥٧ وما بعدها.

لمصالحة الفرد مع مجتمعه، فيما تهدف الأخرى لتعبئته بهدف تغيير الواقع[١].

المفارقة والسخرية:

لعل السخرية والمفارقة من جنس واحد؛ لأن روحًا واحدة هي التي تمدهما بالحياة، غير أن السخرية تعتمد على التضخيم والمفاجأة، وعلى الكلمة والحركة أكثر من غيرهما. لكن كليهما يصدر عن موقف نفسي واحد، حيث إن السخرية ترتكز على المفارقة، أو أن المفارقة هي أحد أشكال السخرية، مثلما أن المفارقة تتخذ السخرية شكلًا أو أسلوبًا لها. بمعنى من الصعب أن نفصل ذرات السخرية عن ذرات المفارقة؛ لأنهما من طينة واحدة، ولعل التعريف الذي سأسوقه هنا للمفارقة يصلح تمامًا ليعرّف السخرية، "مما لا شك فيه أن هناك بعض حقب تاريخية تولد لغة المفارقة، فهذه اللغة وليدة موقف نفسي وعقلي وثقافي معين. وتعرف المفارقة بأنها استراتيجية قول نقدي ساخر، وهي في الواقع تعبير عن موقف عدواني، ولكنه تعبير غير مباشر يقوم على التورية. والمفارقة هي طريقة لخداع الرقابة"[٢].

وأعتقد أن السخرية هي (أدب) العامة والخاصة، أما المفارقة فهي (أدب) الخاصة أكثر منها للعامة من الناس، وهذا ما يفسر طغيان وانتشار السخرية، في حين أن المفارقة لا تشيع شيوع السخرية والنكتة والفكاهة.

وتستخدم المفارقة في نهاية المطاف عندما تفشل كل وسائل الإقناع، ويخفق النقد

---

(١) دراسات في الأدب واللغة، الطبعة الأولى، القدس، ١٩٩١م، ص١٢٣ وما بعدها.

(٢) سيزا قاسم، المفارقة في القص العربي المعاصر، مجلة فصول، المجلد الثاني، العدد الثاني، القاهرة، يناير، فبراير، مارس ١٩٨٢م، ص١٤٣.

الموضوعي، فعندئذ تظل لعبة عقلية من أرقى أنواع النشاط العقلي، وأكثرها تعقيدًا"[١].

إلا أن السخرية كأداة مقاومة شعبية ثقافية ضد القمع والاضطهاد، والقهر الاجتماعي والسياسي، تصبح -كفنٍّ شعبي- أكثر إضاءة في وجدان الجماهير، وأكثر تفجرًا لمعاناتها وشقائها وأحلامها المقتولة، وهي بذلك "تواجه الاحتلال اليومي بتفاصيله الدقيقة ... ويستخدم هذا الفن في التوعية الاجتماعية والسياسية ضمن قاعدة شعبية - فلكلورية مشهورة: إذا كبرت مصيبتك اضحك عليها ... وهو ضحك مسؤول، إذا جاز التعبير، فيه من البكاء المر ما فيه، محبوسًا إلى حين"[٢].

صاحب المفارقة / الساخر:

قد نتفق على أنه ليس بوسع كل إنسان أن يصبح ساخرًا، أو صاحب مفارقة؛ لما يحتاجه ذلك من حساسية، وإدراك، ودقة ملاحظة، وذكاء، وقدرة على البداهة، وامتلاك الموهبة، بالإضافة لما يكتسبه في حياته من معلومات، ودربة، وخبرة تصقل كل ذلك وتؤصله. وأن (من يمتلك مفارقة جوهرية يمتلكها طوال النهار)؛ فهو لا يتصف بالمفارقة في وقت دون آخر، أو في هذا الاتجاه أو ذاك، بل يحسب الوجود بمجمله (يقع في باب المفارقة)، وهو لا يتخذ المفارقة أبدًا لكي ينال الإعجاب بأنه من أصحابها[٣]، تمامًا كالساخر الذي يمتلك السخرية طوال النهار، دليل ذلك شاعرنا

(١) سيزا قاسم، المفارقة في القص العربي المعاصر، ص١٤٣ وما بعدها.

(٢) علي الخليل، نافذة، مجلة الفجر الأدبي، القدس، العدد ٤٤ آيار ١٨٤، ص٧.

(٣) دي. سي. ميويك، المفارقة وصفاتها، ص٤١.

إبراهيم طوقان الذي ضجت قصائده السياسية بالسخرية، كان أصلًا في طفولته لعوبًا، لا يقتصد إذا أخذ بسبب من أسباب العبث واللعب، وكان المرح والابتسام خلقة فيه، فلم يكن ينظر إلى الدنيا إلا من وجهها الضاحك[١]، كما أن ممثلي الكوميديا والعديد من الذين نعرفهم يتفردون بهذه القدرة على السخرية والإضحاك طوال الوقت.

المفارقة في الأدب:

لم ينتبه الدارسون –حسب ما أعلم– إلى أهمية المفارقة في الآداب إلا حديثًا، ففي أوروبا –التي سبقتنا في النهضة، وتأصيل النظريات الأدبية خلال العقدين الماضيين– لم تظهر كلمة (المفارقة) في اللغة الإنجليزية حتى عام ١٥٠٢م، رغم أن الإنجليزية كانت غنية بعبارات مألوفة مثل: يسخر، يهزأ، يغمز، يتهكم، يحتقر... إلخ، وظلت هذه الكلمات حاضرة في الاستعمال اليومي حتى القرن السابع عشر؛ مما ساعد في الإبقاء على (المفارقة) كلمة أدبية، ولم يتطور مفهوم المفارقة في أوروبا إلا في القرن الثامن عشر، حيث كانت المفارقة طريقة في معاملة خصم في جدال، أو خدعة لفظية في جدل بأكمله، ثم صار ينظر إليها كصيغة (بلاغية) بالدرجة الأولى خلال ما يزيد على مئتين سنة. لقد صار تعريف الكلمة: (قول المرء نقيض ما يعنيه)، أو (أن تقول شيئًا وتقصد غيره)، أو (أن تمدح لكي تذم، وتذم لكي تمدح). ثم صارت تستخدم لتفيد التظاهر حتى ما لا ينطوي منه على مفارقة، أو تخفيف القول، أو المحاكاة الساخرة"[٢].

أما أدبنا العربي فمليء بالمفارقة، بدءًا من المفارقة الدرامية في قصة (الهجرس) بن

(١) انظر: فدوى طوقان، أخي إبراهيم، ص١٧، ١٨.

(٢) دي. سي. ميويك، المفارقة وصفاتها، ص٢٩، للتوسع انظر: ص٢٨.

كليب، الذي واجه عمه –وهو لا يدري أنه عمه– الزير سالم في المعركة، ومرورًا بفكاهات العرب التي تملأ أمهات كتبنا التراثية الموسوعية، وبمفارقات المتنبي وسخريته من كافور، والمقامات وما ميزها من فكاهة ومفارقات وسخرية، والفن الشعبي (الكراكوو)، وخيال الظل، ومسرح العرائس الذي كان سائدًا في البلدان العربية قبل ظهور السينما والتلفاز والإذاعة، والتي عملت على تعميم الهزل والفكاهة والقصص الساخرة، ودفعتها إلى كل بيت، وانتهاء بفن الكاريكاتير المعاصر الذي غطى صفحات الصحف والمجلات بما يحتقن به من مفارقة، ولعل الفنان المرحوم ناجي العلي كان من أبرز مبدعي هذا الفن الساخر المعتمد على الكلمة، والصورة المشوهة، والمميزات الخاصة للأشخاص، وكذلك بما احتوته أعمال الأدباء والشعراء العرب والفلسطينيين منهم خاصة من مفارقة، أو سخرية مرة لاذعة، وكذلك بما احتواه الشاعر العامي (الشعبي) العربي من دفقات ساخرة؛ ذلك لأن اللغة المحكية تحتوي على الكثير من المصطلحات والتراكيب اللغوية الساخرة السائدة، التي تكثف السخرية والفكاهة بلغة أقرب ما تكون من نفسية عامة الناس وأدبياتهم الشائعة. وقد يكون الشاعر المصري أحمد فؤاد نجم من الشعراء الشعبيين القلائل الذين اعتمدوا السخرية والنكتة والمفارقة، وذلك في قصائده التي شاعت مغناة بصوت الشيخ إمام، وأشاعت روح التحريض والهزء من الحاكم ومؤسساته، معتمدًا على المثل الشعبي، والقول السائد، والنكتة الشائعة الجراحة، وأثبتت قصائد نجم أنها الأقدر على التأثير والفاعلية والحضور، مثلما عملت على إثارة الضحك المسؤول المضاد.

لماذا المفارقة في شعر إبراهيم طوقان السياسي؟

لو عرفنا حجم الكارثة المخيفة التي حلت بفلسطين وأهلها، والمؤامرة المفزعة التي نفذها الانتداب والاحتلال والزعماء الفلسطينيون والسماسرة ضد الأرض والشعب حتى عام ١٩٤١م (عام وفاة الشاعر)، لفهمنا سبب حملة إبراهيم طوقان على أقطاب المؤامرة، وصبه جام غضبه وسخريته عليهم، وتعريته لهم ولأساليبهم المريعة البذيئة، ولأدركنا سبب دقة خزانات الصمت والموت آنذاك، ودعوة الناس للتصدي والثورة والخلاص.

ففي عام ١٩٢٠م صدر أول قرار بريطاني بشأن هجرة اليهود، وسمح بدخول (١٦٥٠٠) مهاجر يهودي إلى فلسطين خلال عام واحد على الرغم من المعارضة الفلسطينية، وفي تشرين أول ١٩٢١م شهدت يافا اضطرابات عنيفة احتجاجًا على الهجرة الجماعية الصهيونية، وفي الأول من أيار ١٩٢١م قتل فيها ٤٦ وجرح ١٤٦ من اليهود، وفي العام ١٩٢٢م تبين أن عدد اليهود بلغ في فلسطين ١١ بالمئة في حين كان نصف هذا العدد عام ١٩٠٩م، وفي العام ١٩٣٠م أصدرت لجنة تحقيق بريطانية برئاسة (شو) قرارًا على حوادث ١٩٢٩م أكدت فيه أن السبب الرئيس لتلك الحوادث هو الهجرة اليهودية، وفي آب ١٩٣٠م اعترفت بريطانيا بتوسيع الوكالة اليهودية التي ضمت زعماء جدد بهدف العمل على الاستيلاء على الأرض، وفي كانون الأول ١٩٣١م نشر لويس فرنش المدير البريطاني للتنمية في فلسطين تقريره عن المزارعين العرب الذين فقدوا أراضيهم نتيجة انتقال ملكيتها إلى الحيازة اليهودية، وجاء في الكتاب الأبيض الذي أصدره مالكولم ماكدونالد وزير المستعمرات البريطانية في

١٧ أيار ١٩٣٩م عدة نقاط، أهمها: أن تعهدات بريطانيا بإقامة وطن قومي لليهود قد تحققت في معظمها، والسماح في غضون السنوات الخمس التالية بهجرة ٧٥ ألف يهودي آخر إلى فلسطين.

هذا غيض من فيض ممارسات الانتداب، ودعمه الكامل للاحتلال الاستيطاني، عدا المواجهات الدموية للفلسطينيين، والتضييق عليهم بشتى الطرائق والوسائل. وبدلاً من أن ينهض الزعماء الفلسطينيون لمواجهة تلك الغوائل والمخططات، راحوا يتزاحمون على الزعامة والوجاهات، ويتناحرون على القيادة والرياسة، فألفوا الأحزاب (حزب الاستقلال العربي ١٩٣٢م، حزب الدفاع ١٩٣٤م، الحزب العربي الفلسطيني ١٩٣٥م، حزب الإصلاح ١٩٣٥م، حزب الكتلة الوطنية ١٩٣٥م)، عدا عن اللجنة العربية العليا التي تألفت في نيسان ١٩٣٦م، التي وُجدت لتوحيد القوى والتيارات الفلسطينية التي غزتها الخلافات، وخصوصًا خلال المجلسيين المعارضين، واكتفت هذه الزعامة بالاحتجاج اللفظي، ورفع كتب الشجب والاستنكار، وإرسال الوفود، وحرصت على عدم إثارة غضب الانتداب، عداك عن أن خيوطًا ما كانت تربط معظم الزعامات بالمسؤولين البريطانيين (٣٠)، ولسنا في حاجة للتذكير بأن هذه الزعامات أحبطت عمل المجاهدين الفلسطينيين، الذين قارعوا الانتداب والاحتلال بكل ما لديهم من إمكانات وإيمان وتصميم. أما السماسرة –وكان معظمهم من الوجهاء والزعماء– فإننا نكتفي بما يقوله إبراهيم طوقان فيهم: "قضية الخلاف بين العزة الإلهية وإبليس الرجيم في السجود لأبينا آدم قضية مشهورة، سئل إبليس عن عصيانه وذكره، فأدلى بأسباب رآها منطقية، وتمسك بمبدأ تفضيل النار على الطين، فلعن وطرد من رحمة الله؛ لوقاحته المتناهية، وبغض النظر عن وقاحة إبليس وخروجه

على أمر الله، فإنه يظل في نظري أشرف مبدأ من سماسرة الأرض وخروجهم على الوطن، إن إبليس يصرح ويعلن أمام الله عن مذهبه، وهؤلاء يبيعون الأراضي ثم يشتركون في جمعيات إنقاذها ومشاريع الإنقاذ"(١).

أمام تلك المعطيات القاتلة القاتمة وقف إبراهيم طوقان عاجزًا عن الفعل والتصدي والتغيير، فلم يجد إلا المفارقة سلاحًا يقاتل به ويناضل، في حين (تحدث) الشعراء عن وهن الزعماء، وعن تناحر الأحزاب، وعن السمسار الخائن بلغة خطابية مثيرة، أما إبراهيم فوجد أن خير طريقة لتناول هذه الموضوعات هي السخرية والتهكم، فذلك أحرى أن يخلد عار هؤلاء المحرفين جميعًا في نفوس أبناء الشعب، وبخاصة إذا استعمل الشاعر في سخريته عبارات مستمدة من اللغة الدارجة، تتقبلها الناس كما تتقبل الأمثال"(٢)، وقد لا تكون هذه السخرية ذات أثر فوري، ولا توازي الفعل القتالي الموجه الساخن لرد المؤامرات والأفعال الخسيسة، و"لكنها أدوم في اختراقها حواجز الآن"(٣)، فهي "سلاح فعال، وهذا السلاح هو الضحك، لكنه ليس الضحك الذي يتولد عن الكوميديا، بل الضحك الذي يتولد عن التوتر الحاد، والضغط الذي لا بد أن ينفجر"(٤).

ولعل الأدب الساخر يظهر عندما يصبح الناقض حادًّا وعدائيًّا إلى حد انتحاري، حينها يتحول الأدب الملتزم الذي يعري ويكشف ويفضح إلى أدب ساخر متهكم واع

(١) انظر: وليد الخالدي، قبل الشتات، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت وجامعة بيرزيت، الضفة الغربية، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م، ص٨٩-٩١، ١٩١، ١٩٧.

(٢) زكي المحاسني، إبراهيم طوقان، دون تاريخ، ص١٨١ وما بعدها.

(٣) د. إحسان عباس، الشعر في فلسطين حتى عام ١٩٦٧م، الموسوعة الفلسطينية، ص٢٣.

(٤) المصدر السابق، ص٢٣.

لطرائقه وأساليبه المتجددة والمستفيدة من كنوز التراث؛ لتكريس هذه السخرية ضد معطيات الواقع التعيس. "وبنفس المقدار الذي يغوص فيه الأدب الساخر في المرارة والسخط والحزن والعذاب، عاكسًا ومفسرًا بأسلوبه الأدبي المتميز أبعاد المشكلة التي يتصدى لها، فإنه يمتلئ بالأمل والعشق والتفاؤل والثورة، عاملًا على توجيه وتطوير هذا التوتر النفسي التقليدي بالمباشر الذي تخلقه السخرية الحادة إلى وعي ناضج، يخرج من سكون التراكم الكمي اليومي إلى التلهف الهائج نحو التغيير النوعي الشامل"(١).

إن مصدر مفارقة إبراهيم وهدفها هو الواقع (موضوعي)، أي: غير شخصي (ذاتي) بشكل عام، رغم صعوبة فصل الذاتي عن الموضوعي عمليًّا، ورغم الصلة الوثيقة بينهما. فإبراهيم (يمتلك السخرية طوال النهار)، والواقع بمفارقاته يغري إبراهيم ... الأمر الذي ينتج –جدليًّا– قصائده التي تعج بالسخرية والتهكم والمفارقة، فمنذ عام ١٩١٧م وفلسطين تعيش اضطرابًا سياسيًّا واجتماعيًّا نتيجة التغيرات السياسية والاجتماعية (انتداب، هجرة، أحزاب، ثورات)، وعاش شاعرنا في فترة من أشد الفترات اضطرابًا وتخلخلًا في القيم والاتجاهات والسلوك، واضطرت البرجوازية الفلسطينية وريثة الإقطاعية في ذلك الوقت أن تلعب دور (القائد) لاستيعاب الحركة الوطنية قيادتها، ونتيجة لشروط هذه البرجوازية ظهر خليطًا من العشائر القوية والوجاهات التي تسكن المدن، بالإضافة إلى ملاكي الأراضي في الريف، وقد عززت سلطة الانتداب النعرة العشائرية، وأوقدت نيران المنافسة بين (بيوتات) البرجوازية وتشكيلاتها، وتحولت الأحزاب السياسية حينذاك إلى واجهة سياسة رديئة، تعبر عن وجهة نظر ومصلحة خاصة، وتحولت العشيرة إلى حزب؛ نتيجة لهذا الوضع أصبح

(١) سيزا قاسم، المفارقة في القص العربي المعاصر، مجلة فصول، ص١٤٣ وما بعدها.

(الخائن) من (الوجهاء)، والسمسار أيضًا من الزعماء، أي: تحولت الخيانة إلى وجهة نظر وممارسة يومية، ووجدت من يدافع عنها في الصحافة!!.

وإبراهيم طوقان بحكم انتمائه الموضوعي الطبقي إلى إحدى العائلات ذات النفوذ والحضور في مدينة نابلس، استطاع أن يكون صلة وثيقة بالبيئة التي تفرز القادة والزعماء، وهذا يعني أنه كان يعرف الكثير من مساوئهم ومداخلهم ومخارجهم. لكن شاعرنا كان عصاميًّا، ولم يعتمد على عائلته في كسب رزقه، أو لم ينح نحوهم في التجارة والزعامة والوجاهة، أي: أنه رفض طبقته. هذا الانسلاخ الطبقي نجده في هجومه على (طبقة) الزعماء والسماسرة في كثير من قصائده. وعلى الرغم من وجوده في مدينة القدس لم يلتحق بأي حزب، ولم يعرف عنه أنه كان من المعارضين (النشاشيبة)، أو من المجلسيين (الحسينية)، بل قالها صراحة: "إن قلبي لبلادي، لا لحزب، أو زعيم"[١]. لم يهاجم إبراهيم الزعماء؛ لأن آل طوقان لم يكن لهم نصيب من (الكعكة)، أو من الكراسي كما قد يظن بعضهم. ولعلنا نجد انسلاخ إبراهيم الطبقي أيضًا في الأعمال التي مارسها، وطبيعة الحياة وسلوكه فيها.

وكذلك يمكن القول إن إبراهيم هو ذلك الشخص (اللامنتمي)، الذي يبتعد عن (الجماعة) بقدر كاف يسمح له برؤية جماعته بما فيهم من مساوئ وعيوب ليذكرهم بها، إنه (يهرب) منهم لأنه يحبهم، ويريد لهم الخير والبركة والصلاح، (إن أكن مسرفًا بلومي فلومي صادر عن محبتي القلبية)*، هذا (الهروب) هو هروب كل فنان أصيل متفوق، "إن هذه المشاعر من التفوق والانفصال .. مما يميز المفارقة"[٢]، ولنتذكر أن

(١) علي الخليلي، النكتة العربية، ص١٣٥ وما بعدها.

(٢) انظر: قصيدة "غايتي"، ديوان إبراهيم، ص١٦١.

شاعرنا استعمل السخرية ليهزأ من طبقته أصلًا.

أصول وتوجهات المفارقة عند إبراهيم طوقان

تكونت المفارقة في شخص إبراهيم طوقان من مرضه وتربيته وواقعه السياسي، وتوجهت نحو مرضه ورؤيته للحياة والواقع المضطرب، بمعنى: أن السخرية شكلت رؤيته للمرض وللحياة مثلما شكلت موقفه السياسي.

المرض: إن إحساس إبراهيم بقرب أجله بسبب مرضه المزمن، جعله شبقًا يعب من متع الدنيا ما أمكنه أن يعب، كما جعله يكتشف هشاشة الحياة وعدميتها، ومن ثَمَّ نظر إليها نظرة سخرية وهزء وخفة!، الأمر الذي جعله يواجه مرضه بالخفة والدعابة ذاتها، فضعف البنية الجسدية قد يبعث في غير إبراهيم التشاؤم والضجر، ولكنه هو، القوي بروحه، المرح بطبيعته، لم يدع النكتة تفلت منه وهو في أشد حالات المرض (أعطني من دم يكون خفيفًا).

التربية النفسية: من الصعب والغريب أن تأتي المفارقة تقصدًا بقدر اندماجها في روح الإنسان، وتكوينه النفسي والتربوي والثقافي، الأمر الذي جعل إبراهيم (صاحب نكتة) بالفطرة والتربية، يرى النكتة في كل شيء؛ ولهذا فقول إبراهيم: "الشعر نكتة، قد يحسن الشاعر قوله، وقد لا يحسن"[١]، لا يعدو كونه جزءًا من رؤية إبراهيم

(١) د. إحسان عباس، نظرة في شعر إبراهيم طوقان، مجلة الجديد في عالم الكتب والمكتبات، العدد ٦ ربيع ١٩٩٥م، لبنان، ص٧.

(الساخرة) للحياة، ولكل شيء فيها.

ولعل تكوين إبراهيم النفسي والتربوي ومتعلقات حياته قد جعلت نظرته العامة للحياة نظرة فيها الكثير من المفارقة، وأبرز هذه المفارقات رؤيته المشروخة للحياة، أو ما أسميه بانكسار الرؤية عند إبراهيم، فهو يسخر من الزعماء، وفي الوقت نفسه يرثي بعضهم، ويصف مفاتن الحسان، ويسقط في الشهوات في الوقت الذي تبدو فيه قناعته الدينية وعقيدته ثابتة، هذا الشرخ أو الانكسار له جذور قوية ممتدة إلى تكوينه ومتعلقات حياته كالمرض، أو الواقع المختل.

الموقف السياسي:

إن التقاء الوعي والعجز في شخص إبراهيم أدى إلى السخرية والتحكم من السماسرة كسلاح وحيد يعيد إلى إبراهيم توازنه، والسخرية بذلك سلاح فعال يدعو الناس إلى الاستهانة بالحاكم وأحكامه، ومن ثَمَّ مقاومته وعدم الخوف منه، إذ يريد الباغي في العادة إيصال رسالته الرهيبة إلى جمهور الناس لتفعل فعلها فيهم، فيستكينوا خوفًا وضعفًا، ولكن سلاح الضحك يستطيع المواجهة، وهو (سلاح) لا يستطيع القانون أن يضبطه، ولا تستطيع الرقابة السيطرة عليه، أو الحد من أثره، أو أن تعاقب عليه. وقد وظف إبراهيم (سلاحه) السخرية في مواجهة الموقف القاهر (الموت، الظلم، بيع الأرض، الأحكام الجائرة)؛ لأن روحه كانت "تنتفض لكل ظاهرة اجتماعية أليمة، فيفيض أثرها في نفسه ووجدانه، فإذا سكب عليه فنه وخياله، برزت منها صور شعرية حية، تساند الضعيف، وتقف إلى جواره، وتشد من أزره"(١).

(١) إبراهيم طوقان، شاعر الوطن المغصوب، ص١٨٩.

ويساند ما ذهبنا إليه إشارة إحسان عباس إلى أن شعر إبراهيم يسير في تيارين كبيرين: تيار قائم على العفوية والسخرية، كشف فيه عن خلل الأوضاع السياسية والاجتماعية في فلسطين، وتيار قائم على العمق، وعلى الربط الوثيق المتفاعل بين الحياة والواقع ... لا يمكن فصلها عن بعضها البعض، فهي مترابطة تؤثر في بعضها البعض، متداخلة متجادلة، لا تُفصل إلا لضرورة البحث نظريًّا(١).

أشكال المفارقة في شعر إبراهيم طوقان السياسي:

لقد جاءت المفارقة في قصائد إبراهيم بأشكال وصيغ مختلفة:

الأولى: استعمال صيغة الأمر أو الاستفهام؛ وذلك لدفع العقل أو التفكير إلى المقارنة أو المشاكلة أو المقابلة، وأمثلة ذلك قوله:

أجـــلاء عـــن الـــبلاد تريـــدون فنجلـــو، أم محقنـــا والإزالـــه؟!(٢)

**

وأضـــعتُ صـــادقة الرجـــاء فـــأين كاذبـــة الرجـــاء(٣)

**

(١) انظر: نظرة في شعر إبراهيم طوقان، ص٨.

(٢) قصيدة "أيها الأقوياء"، الأعمال الشعرية الكاملة، إعداد وترتيب: ماجد الحكواتي، الكويت، مؤسسة جائزة عبد العزيز البابطين للإبداع الشعري، ٢٠٠٢م. ص١٠٣.

(٣) قصيدة "فلسطين مهد الشقاء"، ديوان إبراهيم، ص٩٧.

اقعـد، فـديتك، هـل يكـون مـبجلًا كـان للـنشء الصـغير خلـيلًا[١]

**

ليصـم عـن مبيعـه الأرض يحفـظ بائعـة تسـتريح فيهـا عظامـه[٢]

**

قـل لوجـه البـدر إن قابلتهـا جـاءك الحسـن انعكاسًـا مـن هنـا[٣]

**

فاهـدأي يا عواصـف خجـلًا مـن جراءتـه[٤]

**

فكِّـر بموتـك في أرض نشـأت بهـا واتـرك لقـبرك أرضًـا طولهـا باع[٥]

**

مـا لم تقـم بالعـبء أنـت فمـن يقـوم بـه إذن؟[٦]

**

أفـرغتم مـن كـل أمـر سـوى المجلـس يحتـاج همـة وجهـادا

---

(١) قصيدة "الشاعر المعلم"، ديوان إبراهيم، ص٣٠٣.

(٢) قصيدة "اشتروا الأرض تشتريكم من الضيم"، ديوان إبراهيم، ص٩١.

(٣) قصيدة "ليلى كوراني"، ديوان إبراهيم، ص٢٧٨.

(٤) قصيدة "الفدائي"، ديوان إبراهيم، ص٧٩.

(٥) قصيدة "إلى بائعي البلاد"، ديوان إبراهيم، ص٦٥.

(٦) قصيدة "تفاؤل وأمل"، ديوان إبراهيم، ص٥٩.

مـــــثخن بالجـــــراح أبـــــراه الله فهـــلا كنـــتم لـــه عـــوادا[١]

**

عـــــلام احتراسُـــــكِ؟ لا أعلـــــم وفـــيم احتشـــادُكِ؟ لا أفهـــم
وهـــل في فلســـطين مـــا تـــرهبين ســـوى أنـــه اجتمـــع الموســـم
معازيـــــل إلا مـــــن العنعنـــــات مشـــاغيل عـــن كـــل مـــا يكـــرم[٢]

**

هـــل لـــديكم سياســـة غـــير هـــذا القـــول يحيـــي مـــن النفـــوس قواهـــا
صـــكت الألســـن المســـامع حـــتى لقيـــت مـــن ضـــجيجكم مـــا كفاهـــا
عـــــرف النـــــاس والمنـــــابر والأقـــــلام أفضـــــالكم فهـــــاتوا ســـــواها
كلكـــــم بارع بليـــــغ –بحمـــــد الله– طـــــبٌّ بحالنـــــا ودواهـــــا
غـــير أن المـــريض يرقـــب مـــنكم هـــذه الجرعـــة الـــتي لا يراهـــا
كـــان أولى بكـــم لـــو أن مـــع القـــول فعـــالًا محمـــودة عقباهـــا[٣]

الثانية: استعمال اللغة المحكية أو المتدنية؛ للدلالة على تدني أو دونية الموضوع / الشخص هدف المفارقة. وتكاد تكون قصائد إبراهيم التي قالها في السماسرة والزعماء اعتمدت على اللغة المحكية، وعلى كثير من المصطلحات والتراكيب المتداولة بين العامة، وخصوصًا قصائده: (إلى ثقيل، أيها الأقوياء، السماسرة، إلى الأحرار، أنتم) وكذلك قوله:

---

(١) قصيدة "يا سراة البلاد"، ديوان إبراهيم، ص٤٦.

(٢) قصيدة "أيتها الحكومة""، ديوان إبراهيم، ص١١٣.

(٣) قصيدة "يا رجال البلاد"، ديوان إبراهيم، ص٩٢-٩٣.

إن (المظفــر) مــن حديــد جســمه فيمــا أرى، وجســومهم مــن سُــكر[١]

**

شــعبكم كالــذباب في كــل أرض منــه شــيء علــى القــدور يحــوم[٢]

**

واليــوم، مــن شــؤمكم، نُبلــى بكارثــة هــذا هــو الطــين والمــاء الــذي زادا[٣]

**

ويكــاد (يفلقــني) الأمــير بقولــه: كــاد المعلــم أن يكــون رســولا
فــأرى (حمــارًا) بعــد ذلــك كلــه رفــع المضــاف إليــه والمفعــولا
لا تعجبــوا إن صــحت يومًــا صــيحة ووقعــت مــا بــين (البنــوك) قتــيلا[٤]

**

درســان كــانا في الصــبا عــذابي ويحهمــا كــم شــنّجا أعصــابي[٥]

الثالثة: المقابلة، فغالبًا ما تتم المفارقة بأسلوب المقابلة. والمقابلة أن يعطي (الصورة) كما هي بتناقضاتها، ثم يأتي (بالمثال)، فترى بمقابلتهما ما في الوضع من إثارة للعقل والعاطفة معًا؛ ومثال ذلك قوله:

---

(١) قصيدة "الشيخ المظفر"، ديوان إبراهيم، ص١٠١.

(٢) قصيدة "رد على رئوبين شاعر اليهود"، ديوان إبراهيم، ص٦٨.

(٣) قصيدة "زيادة الطين"، ديوان إبراهيم، ص١٠٤.

(٤) قصيدة "الشاعر المعلم"، ديوان إبراهيم، ص٣٠٣-٣٠٤.

(٥) قصيدة "مداعبة قدري طوقان"، ديوان إبراهيم، ص٣٠٦.

ليت لي من جماعة (السّار)[١] قوما يتفانون في خلاص البلاد
أو كإيمانهم رسوخًا عميقا ثابت الأصل في قرار الفؤاد
لا كإيمان من ترى في فلسطين قصير المدى، كليل الزناد
يتداعى إذا تسلّط وغْدٌ أو وعيد عليه عند العوادي[٢]

أو قوله:

حبذا لو يصوم منا زعيم مثل (غندي) عسى يفيدُ صيامُه
لا يصم عن طعامه ... في فلسطين يموت الزعيم لولا طعامه[٣]

والمقابلة كذلك "توازي تراكيب وألفاظ، وقد تكون هذه الألفاظ مترادفة، أو متعاكسة في المعنى"[٤]، ومن خلال هذا الترادف، أو التناقض (الطباق) تتجلى المفارقة، ومثال ذلك:

إن (المظفّر) من حديد جسمه فيما أرى، وجسومهم من سُكّر[٥]

يتنعمون مكرمين، كأنما لنعيمهم عم البلاد شقاؤها

---

(١) السار: مقاطعة تقع على الحدود بين فرنسا وألمانيا، سكانها من الألمان، وقد ضمتها فرنسا إليها بعد الحرب العالمية الأولى، ثم أجري فيها استفاء بين السكان، فاختاروا الانضمام إلى ألمانيا. ديوان إبراهيم، هامش ص١٠٠.

(٢) قصيدة "الإيمان الوطني"، ديوان إبراهيم، ص١٠٠.

(٣) قصيدة "اشتروا الأرض تشريكم من الضيم"، ديوان إبراهيم، ص٩١.

(٤) محمود غنايم، دراسة في شعر عبد الرحيم محمود، منشورات وكالة أبي عرفة، القدس، الطبعة الأولى، ص٧٣.

(٥) قصيدة "الشيخ المظفر"، ديوان إبراهيم، ص١٠١.

وحماتهـــا، وبهـــم يـــتم خرابهـــا وعلـى يـديهم بيعهـا وشـراؤها[١]

**

ليســـت فلســـطين الرخيـــة غـــير مهـــد للشـــقاء
هيهـــات ذلـــك إن في بيـــع الثـــرى فقـــد الثـــراء
فـــاليوم أمـــرح كاســـيًا وغـــدًا ســـأُنبذ بالعـــراء[٢]

**

للحـــق ســـطر في صـــحافتنا وللتضـــليل نهـــر
للخـــاملين نباهـــة فيهـــا وللأغمـــار ذكـــر
وهنـــاك سمســـار الـــبلاد فإنـــه الشـــهم الأغـــر[٣]

**

فسـمعتُ مـنْ منـع الرقيـق وبيعـهُ نادى علـى الأحـرار يا مـن يشـتري[٤]

**

هـي فرحـة العيـد الـتي قامـت علـى ألم الحيـاة وكـل عيـد طيّـب[٥]

**

أو قطـوبٌ .. تخيـب منـه المسـاعي، وابتسـامٌ .. تـذوب فيـه المبـادي

---

(١) قصيدة "السماسرة"، ديوان إبراهيم، ص١٠٢.

(٢) قصيدة " فلسطين مهد الشقاء"، ديوان إبراهيم، ص ٩٧.

(٣) قصيدة "فلسطين مهد الشهداء"، ديوان إبراهيم، ص٩٨-٩٩.

(٤) قصيدة "الثلاثاء الحمراء"، ديوان إبراهيم، ص٨٢.

(٥) قصيدة "الحبشي الذبيح"، ديوان إبراهيم، ص٢٨٠.

لا تلمني إن لم أجد من وميضٍ لرجاءٍ ما بين هذا السواد[١]

**

وهضمتم حق الجوار وصحتم: "أيها الناس حقنا مهضوم"[٢]

**

غضبة من رجل في أمة جعلته أمة في رجل

ووقاها الله والعون به دول الغدر وغدر الدول[٣]

ولعل هذا النوع من المفارقة يقترب كثيرًا من مفارقة التنافر.

الرابعة: تغير حقائق مخالفة للوضع القائم، أو حقائق غير مألوفة .. وذلك لاكتشاف المفارقة، ومثال ذلك قوله:

هو بالباب واقف والردى منه خائف[٤]

**

عيبه أنه لسان حسود نشر الفضل منك بين البرية[٥]

**

لك ما شئت يا طبيب ولكن أعطني من دمٍ يكون خفيفا[٦]

---

(١) قصيدة "الإيمان الوطني"، ديوان إبراهيم، ص١٠٠.

(٢) قصيدة "رد على رئوبين شاعر اليهود"، ديوان إبراهيم، ص٦٨.

(٣) قصيدة "نسر الملوك"، ديوان إبراهيم، ص١٥٩-١٦٠.

(٤) قصيدة "الفدائي"، ديوان إبراهيم، ص٧٩.

(٥) قصيدة "تحية الريحاني"، ديوان إبراهيم، ص٥٤.

(٦) قصيدة "الدم الخفيف"، ديوان إبراهيم، ص٣٠٠.

**

ما زينتك وإنما زينتها بجوارها لجبينك الوضاء[١]

**

عُرفتِ بالفضل وكم فاضل جنى عليه الفضل يا وردتي[٢]

**

جذلان يرتقب الردى فأعجب لموتٍ في سرور[٣]

**

يوسف باعه أبوكم يهوذا إن حب الدينار فيكم قديم[٤]

**

قالوا حلاوة روحه رقصت به فأجبتهم ما كل رقص يطرب[٥]

الخامسة: معاكسة النتائج للمقدمات، فالمفارقة تحتاج إلى منطق معين؛ ذلك لأنها تأتي أولًا بالمقدمات لتخلص إلى النتائج. وهذا ما استعمله شاعرنا في بعض قصائده، ومثال ذلك قصيدته (أنتم)[٦]:

أنتم (المخلصون) للوطنية أنتم الحاملون عبء القضيه!!

---

(١) قصيدة "إلى ذات العصابة الزرقاء، ديوان إبراهيم، ص٢٣٥.

(٢) قصيدة "مناجاة وردة"، ديوان إبراهيم، ص٢٧٤.

(٣) قصيدة "الثلاثاء الحمراء"، ديوان إبراهيم، ص٨٤.

(٤) قصيدة "رد على رئوبين شاعر اليهود"، ديوان إبراهيم، ص٦٧.

(٥) قصيدة "الحبشي الذبيح"، ديوان إبراهيم، ص٢٧٩.

(٦) قصيدة "أنتم"، ديوان إبراهيم، ص١٠٨.

أنتم العاملون من غير قول!! بارك الله في الزنود القويّه!!
(وبيان) منكم يعادل جيشًا بمعدات زحفه الحربيه
(واجتماع) منكم يرد علينا غابر المجد من فتوح أميّه
وخلاص البلاد صار على البا ب وجاءت أعياده الورديه
ما جحدنا (أفضالكم)، غير أنا لم تنزل في نفوسنا أُمنيّه
في يدينا بقية من بلاد .. فاستريحوا كيلا تطير البقيّه

وكذلك قوله:

مغرم بالبلاد صب ولكن بسوى القول لا يفيض غرامه
بطل أن علا المنابر، كرار سريع عند الفعال انهزامه[1]

أو قوله:

يا يهوديُّ لا عليك سلام وإذا شئت لا عليك شلوم[2]

السادسة: المعاكسة اللفظية، أو عكس الدلالة، وهي ما تسمى بالمفارقة اللفظية، "وهي شكل من أشكال القول، يساق فيه معنى ما، في حين يقصد منه معنى آخر، غالبًا ما يكون للمعنى السطحي الظاهر .. ويجتمع فيها أكثر من عنصر، فهي تشتمل على عنصر يتعلق بالمغزى هو مقصد القائل .. وتشتمل كذلك على عنصر لغوي بلاغي هو عملية عكس الدلالة"[3]، ومثال ذلك عند إبراهيم قوله:

---

(١) قصيدة "اشتروا الأرض تشتريكم من الضيم"، ديوان إبراهيم ص٩١.

(٢) قصيدة "رد على رئوبين شاعر اليهود، ص٦٩.

(٣) سيزا قاسم، المفارقة في القص العربي المعاصر، مجلة فصول، المجلد الثاني، العدد الثاني، ١٩٨٢م،

أنـــتم (المخلصـــون) للوطنيـــة أنـتم الحـاملون عـبء القضـيه![١]

وقوله للانتداب:

قـــد شـــهدنا لعهـــدكم (بالعدالـــة) وختمنـــا لجنـــدكم بالبســـاله
وعرفنـــا بكـــم صـــديقًا وفيّـــا كيـف ننسـى انتدابـه واحتلالـه
وخجلنـا مـن (لطفكـم) يـوم قلـتم: وعـد بلفـور نافـذ لا محالـه
كـل (أفضـالكم) علـى الـرأس والعـين، وليســت في حاجــة دلالــه[٢]

ولعله من نوافل القول توضيح ما ذهبنا إليه، وهو أن إبراهيم يقصد أن السماسرة ليسوا مخلصين مثلما أن الانتداب ليس عادلًا، بل عهده عهد ظلم وجور وعداء.

السابعة: معاكسة النمط البلاغي، وهو وضع المشبه به بدل المشبه، أي: عكس النمط السائد في طرائق استخدام المشبه والمشبه به، كأن نقول: القمر كوجه الفتاة، وهذا ما يدعو لإمعان الفكر والنظر لاستخلاص المفارقة، وهذا ما فعله إبراهيم في قصيدته (إلى ثقيل)[٣]:

أنـــت (كـــالاحتلال) زهـــوًا وكـــبرا أنـت (كالانتـداب) عُجبًـا وتيهـا
أنـــت (كـــالهجرة) الـــتي فرضـــوها لـيس مـن حيلـة لقومـك فيهـا
أنـت أنكـى مـن (بائـع الأرض) عنـدي أنـــت (أعـــذاره) الـــتي يـــدّعيها

ص١٤٤.

(١) انظر: قصيدة "أنتم"، ديوان إبراهيم، ص١٠٨.

(٢) قصيدة "أيها الأقوياء"، ديوان إبراهيم، ص١٠٣.

(٣) قصيدة "إلى ثقيل"، ديوان إبراهيم، ص١٠٥.

لـــك وجـــه كأنـــه وجـــه (سمســـار) علـــى شـــرط أن يكـــون وجيهـــا
وجبـــين مثـــل (الجريـــدة) لمـــا لم تجـــد كاتبًـــا عفيفًـــا نزيهـــا
وحـــديث فيـــه ابتـــذال (احتجـــاج) كلمـــا نمقـــوه عـــاد كريهـــا
جُمعـــتْ فيـــك (عصـــبة) للـــبلايا وأرى كـــل أمـــة تشـــتكيها

الثامنة: السخرية من صاحب الفعل، أو من الفعل، أو من الواقع، عن طريق الضحك منه، أو التهكم عليه، أو التقليل من شأنه، أو إبراز المفارقة الكامنة فيه، من خلال المفارقة اللفظية، أو توجيه النصيحة لئن يستمر في عمله؛ قناعة بأنه لن يتراجع، أو لأنه حالة ميئوس منها، أو من خلال المبالغة والتهويل والتضخيم[١]، ومثال ذلك:

(وبيـــان) مـــنكم يعـــادل جيشـــا بمعـــدات زحفـــه الحربيـــه
(واجتمـــاع) مـــنكم يـــرد علينـــا غـــابر المجـــد مـــن فتـــوح أميـــه[٢]

**

إن كـــان هـــذا عطفـــه وحنـــون عاشـــت جلالتـــه وعـــاش سُمـــوُه[٣]

**

أمـــا سماســـرة الـــبلاد فعصـــبة عـــار علـــى أهـــل الـــبلاد بقاؤهـــا
إبلـــيس أعلـــن صـــاغرًا إفلاســـه لمـــا تحقـــق عنـــده إغراؤهـــا[٤]

---

(١) راجع: دي. سي. ميويك، المفارقة وصفاتها، ص٦٧-٦٨.

(٢) قصيدة "أنتم"، ديوان إبراهيم، ص١٠٨.

(٣) قصيدة "الثلاثاء الحمراء"، ديوان إبراهيم، ص٨٢.

(٤) قصيدة "السماسرة"، ديوان إبراهيم، ص١٠٢.

**

قد سقى الأرض بائعوها بكاء لعنتهم سهولها ورباها
وطني مُبتلىً بعصبة (دلالين) لا يتقون فيه الله
في ثياب تريك عزًّا ولكن حشوها الذل والرياء سداها
ووجوه صفيقةٍ ليس تندى بجلود مدبوغةٍ تغشاها
وصدور كأفئن قبور مظلمات قلوبهم موتاها
حُسبوا في الرجال، هل كانت الأنعام إلا لمثلهم أشباها[1]

**

قد يُعذرون لو أن الجوع أرغمهم والله ما عطشوا يومًا ولا جاعوا
تلك البلاد إذا قلتَ اسمها "وطن" لا يفهمون، ودون لفهم أطماع[2]

**

إنما عدة الضعيف (احتجاج) لم يجاوز حد السطور احتدامه
كل يوم حزب وحلم فحدِّث عن ضعيف سلاحه أحلامه[3]

وكذلك قصيدته (إلى الأحرار):

أحرارنا، قد كشفتم عن (بطولتكم) غطاءها يوم توقيع الكفالات
أنتم رجال خطابات منمقةٍ كما علمنا، وأبطال (احتجاجات)

(١) قصيدة "يا رجال البلاد"، ديوان إبراهيم، ص٩٢.
(٢) قصيدة "إلى بائعي البلاد"، ديوان إبراهيم، ص٦٥.
(٣) قصيدة "اشتروا الأرض تشتريكم من الضيم"، ديوان إبراهيم، ص٩١.

وقد شبعتم ظهورًا في (مظاهرةٍ) (مشروعةٍ) وسكرتم بالهتافات
ولو أصيب بجرح بعضكم خطأً فيها، إذًا لرتعتم بالحفاوات
بل حكمة الله كانت في سلامتكم لأنك غير أهلٍ للشهادات
أضحت فلسطين من غيظٍ تصيح بكم: خلّوا الطريق فلستم من رجالاتي
ذاك السجين الذي أغلى كرامته فداؤه كلّ طلّابِ الزعامات[١]

التاسعة: إيقاظ الواهم، أو ما تسمى بالمفارقة الدرامية، ويمكن تعريف هذا النوع من المفارقة بأنه الموقف الذي يتولد من سلوك إنسان ما سلوكًا معينًا، وهو جاهل تمامًا بكل ملابسات الموقف وحقيقته، بخاصة عندما يكون هذا السلوك مخالفًا كل المخالفة للملابسات تمامًا"[٢]، مثال ذلك قوله لابن الشعب ينبهه لأعمال تفكيره واكتشاف الحقيقة:

وطن يُباع ويُشترى وتصيح "فليحيَ الوطن"[٣]

وكذلك قوله في قصيدته (كارثة نابلس):

ومريض وعُوّدٍ، صُرّخ الموت، وكانوا يدعون بالإبلال[٤]

صوّرهم وهم لا يعلمونن من أمر الزلزال – الموت القادم إليهم، في اللحظة التي كانوا بدعواتهم يرجوه ابتعاده.

---

(١) قصيدة "إلى الأحرار"، ديوان إبراهيم، ص٩٦.

(٢) سيزا قاسم، المفارقة في القص العربي المعاصر، مجلة فصول ص١٥١، هامش رقم ١٧.

(٣) قصيدة "تفاؤل وأمل"، ديوان إبراهيم، ص٥٩.

(٤) قصيدة "كارثة نابلس"، ديوان إبراهيم، ص١٤٣.

العاشرة: من خلال المعارضة والتضمين؛ لأن "المعارضة لا تستهدف محاكاة الواقع، بل محاكاة الأدب نفسه متحققًا من نص آخر، فالشيء المحاكي ليس هو الطبيعة الخارجية، بل هو شيء لغوي مصنع من قبل ومتاح للناس، ويؤدي بنا ذلك إلى أن المعارضة تبتعد نوعًا ما عن مفهوم الأدب الواقعي، وتأتي بوصفها رد فعل لتوهم إمكانية محاكاة الواقع، أو إمكانية تحقق هذه المحاكاة، فالأدب يحاكي الأدب، بمعنى: أن اللغة تحاكي لغة، ولا تحاكي أشياء قائمة خارجها"[١]، وقد استند إبراهيم في قصائد له على (محاكاة) نصوص أدبية منجزة، كقصيدته (الشاعر المعلم)، أو في رده على شاعر اليهود رئوبين، أو (محاكاة) إبراهيم بشكل مختلف للمتنبي في قصيدة (مرابع الخلود)، وليس صدفة أن هذه القصائد الثلاث تعد من القصائد (الساخرة) عند إبراهيم، ففي مقطع من قصيدة (مرابع الخلود) يقول:

ومضحك مشقق الكعبين أسودُ، لابيٌّ، بمشفرين
عهدته يُشدَ بالأذنين وقدره يرد بالفلسين
يومَ تروجُ سلعة الخصيان
كان لمصر سُبّةً وعارا يوم أثار الشاعر الجبّارا
لم أدر هل كان الهجاء نارا أم عاصفًا هُيّجَ أم تيّارا
أم شُقّ ذاك الصدر عن بركان[٢]

في حين تكاد تكون (الشاعر المعلم) و(الرد على رئوبين شاعر اليهود)[٣]

(١) سيزا قاسم، المفارقة في القص العربي المعاصر، مجلة فصول، ص١٤٤.

(٢) قصيدة "مرابع الخلود"، ديوان إبراهيم، ص٢٩٤.

(٣) انظر: ديوان إبراهيم، ص١٢٧، ص٧٨.

قصيدتين ساخرتين من ألفهما إلى يائهما.

وثمة مفارقات أخرى وردت في قصائد إبراهيم، منها المفارقة المألوفة كقوله:

شـــأن الضـــمير مـــع السياســـة كـــالرقيق مـــع النخاســـة[١]

**

حُسـبوا في الرجـال، هـل كانـت الأنعـــام إلا لمـــثلهم أشـــباها

مثـــل القـــول لا يؤيـــده الفعـــل، أزاهـــيرُ لا يفـــوح شـــذاها[٢]

وهي مفارقة تشبه (الشيء) موضع السخرية بشيء غاية في الانحطاط والدناءة والهبوط.

وكذلك المفارقة التاريخية كقوله:

كـادت الكـأسُ الـتي في قـبرص تُشـبه الكـأس الـتي في كـربلا[٣]

والمفارقة التاريخية تكاد تشبه القول المعروف (التاريخ يعيد نفسه)، وفي ذلك مفارقة واضحة.

وثمة مفارقة بينة في عناوين قصائد إبراهيم، وخصوصًا قصائده الساخرة؛ مما يعمق السخرية في تلك القصائد ويؤكدها، مثل (أيها الأقوياء، أنتم، السماسرة، إلى بائعي البلاد، زيادة الطين).

---

(١) قصيدة "فلسطين مهد الشقاء"، ديوان إبراهيم، ص٩٨.

(٢) قصيدة "يا رجال البلاد"، ديوان إبراهيم، ص٩٢-٩٣.

(٣) قصيدة "الملك حسين"، ديوان إبراهيم، ص١٥٤.

الساخر و"الضحية":

من المفارقة أن تكون الضحية هنا هي الساخر، أما (الضحية) فهي السمسار، أو الانتداب، أو الاحتلال، أي: أن (الضحية) ليست ضحية بقدر ما هي الجلاد؛ ولهذا لم تستحق هذه الضحية التعاطف. وينتفي في هذه الحالة التمثل أو الشفقة، فهي تستحق ما وقع عليها أولها من وجهة نظر الشاعر، ومن يقف خلفه، أو ينظر من زاويته؛ لأن قيم الضحية هنا معادية ومرفوضة؛ مما يفسر ابتعاد الشاعر عن الضحية، والنظر إليها من بعد.

أما المفارقة التي استخلصها من ذلك كله هي المفارقة الهجائية؛ لأن الذي وقعت عليه السخرية (الهجاء) معاد للقيم البشرية؛ لذلك يكون الاندحار لا بد منه، والمفارقة الهجائية عكس المفارقة المأساوية التي يشيع فيها التعاطف مع الضحية، وبعيدة عن الكوميدية بمعنى انتصار الضحية المتعاطف معها.

وإذا ما نظر قارئ غير فلسطيني / عربي / مسلم / تقدمي في أشعار إبراهيم طوقان، فإنه يستخلص من قصائده الساخرة مفارقة متناقضة، بمعنى: أنه يرى ضحيتين (الشاعر، والسمسار)، والنتيجة اندحار هو في الوقت نفسه انتصار[١].

أسلوب إبراهيم طوقان في المفارقة:

من الواضح أن إبراهيم لم يعتمد على الكاريكاتير في قصائده، فكان بعيدًا عن التضخيم الجسدي، أو التشويه البدني، ولم يركز على المميزات الخَلْقية .. وإنما ركز على المميزات الخُلُقية، وعلى إخراج سخريته بقالب يهز الوجدان، وذلك باستعمال اللغة

(١) انظر: دي. سي ميويك، المفارقة وصفاتها، ص٦٢.

السهلة المطعمة بالكلمات الشعبية، وعلى قوة ربطه بين القضايا، وعلى المفاجأة. كما كانت قصائده الساخرة واضحة لا لبس فيها سوى لبس المفارقة، بمعنى :كانت قصائده بعيدة عن الغموض، لا تكلف فيها ولا صنعة، بل رقراقة صافية واضحة، أي: لم يذهب إبراهيم لفلسفة المسائل، ولم يعبث، ولم يستغرق في فكرة عدمية أو وجودية، الأمر الذي جعل قصائده تتصف بالمفارقة؛ لأنه "عندما تكون الصورة (فكرية) أو (أدبية)، سواء (بالإفصاح عن قول) أو (بإيصال رسالة)، فإنها عند ذلك تتصف بالمفارقة. ولكن عندما تكون الصورة مثالًا للكمال الشكلي، أو التجديد التقني، أو التعبير المطلق، تغدو المفارقة مشوشة أو داخلية"(١).

ومفارقة إبراهيم من النوع الذي يؤدي إلى الدهشة وتنبيه العقل، مثلما تمكنت من تصوير الأمور العادية المألوفة وكأننا نراها لأول مرة. تلك الدهشة التي تهز مشاعر الفنان حين يتبين له أن الواقع المدرك من الخارج ليس هو الواقع الذي يعيشه أو يحسه في تلك اللحظة ... والرؤية الكلية لطبيعة الإنسان والكون والحياة، تلك الطبيعة التي تزيل حجاب الألفة بين الإنسان والخارج، وتقدم إليه ازدواج الوجود، أو التضاد القائم فيه على الأقل من ناحية الشعور، وكلا الرؤيتين: رؤية الدهشة، والرؤية الكلية، تتناول الأشياء المألوفة العادية بطريقة من شأنها أن تجعلها تبدو للذهن –وقد اكتست سحر الجدة– في أوضاع وصور غير عادية، أو نقول بطريقة تحاول أن تظهر أن الأشياء العادية ليست في الحقيقة عادية، وإنما هي جديدة باستمرار"(٢).

وعلى الرغم من أن إبراهيم في معاكسته اللفظية، أو عكسه لدلالات الكلمات

(١) المصدر السابق، ص١٧.

(٢) د. نعيم اليافي، تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث، ص١٩١ وما بعدها.

التي أوردها (المفارقة اللفظية)، حيث كان يورد الكلمة ويقصد بها عكس ما نتوقعه من معان تحملها، أو "ما يثير اللفظ في ذهن المتلقي من توقع أو استباق"(١) .. إلا أن المعنى الظاهر لم يفقد قيمته وتألقه؛ لأن "الكشف عن المعنى الحقيقي الذي يسوق الكاتب لا ينتج عنه إلغاء قوة المعنى الظاهر. وقد يعني هذا أيضًا أن المفارقة لا تتميز بالغموض الذي يكتنف القول فحسب، بل بالإحساس الغريب كذلك، الذي يولده اشتمالها على عناصر متعارضة، وتكمن الطبيعة الإشكالية في حل دلالة المفارقة في هذا النوع من الغموض، ومن ثَمَّ فإن فن المفارقة يتحقق حين يقال الشيء دون أن يقال، وحين يكون القصد مفهومًا دون أن يكون جليًّا"(٢).

وما يميز قصائد إبراهيم الساخرة هو أنها هجست بالنبوءة، أو ما يسمى المفارقة المحتملة، أي: يتوقع أن يحدث شيء ما ... ويحدث بالفعل لاحقًا، وأمثلة ذلك قوله:

أنتم اليوم تزرعون فسادا وغدًا سوف يُثمر استعبادا(٣)

**

أجلاء عن البلاد تريدون فنجلو، أم مَحْقنا والإزاله؟(٤)

قضيةٌ نبذوها بعدما قُتِلت ما ضرّ لو فتحوا قبرًا يواريها(٥)

**

(١) مصطفى سويف، النقد الأدبي، مجلة فصول، المجلد الرابع، العدد الأول، ١٩٨٣م، ص٢٢.

(٢) سيزا قاسم، المفارقة في القص العربي المعاصر، مجلة فصول، ص١٤٤.

(٣) قصيدة "يا سراة البلاد"، ص٤٧.

(٤) قصيدة "أيها الأقوياء"، ص١٠٣.

(٥) قصيدة "القدس"، ص١١٤.

في يـــــدينا بقيـــــة في بـــــلاد .. فاســـتريحوا كـــيلا تطـــير البقيّـــه[١]

وإبراهيم مقتصد في لغته، غالبًا ما كانت صوره مكثفة، ولغته جوهرية غير فائضة، وجمله مركزة، لم يسهب ولم يفصل، وهذا هو أسلوب المفارقة؛ لأن المفارقة ضرب من التأنق، وهدفها "إحداث أبلغ الأثر بأقل الوسائل تبذيرًا ... فالمحاكاة الساخرة، والتحجيم حد التفاهة، والموافقة بأسلوب المفارقة والنصح والتشجيع والسؤال البلاغي وبضعة أشكال من أساليب المفارقة، يمكن أن تقع جميعًا في هذا الباب من الاقتصاد في الجهد"[٢].

وفي قصائده الساخرة كانت تسيطر عليه حالة من التداعي[٣]، وتلاحقه فكرة التصدي للسماسرة والزعماء والانتداب، الأمر الذي كوّن أمامنا صورة شاملة مفصلة للسمسار أو الزعيم الخائن، عمّقت من كرهنا له ولأفعاله المشينة، ورسّخت فينا القيم والمعاني المضادة التي أرادها لنا الشاعر.

وقصائد إبراهيم هذه غاية في الحساسية؛ لأن كل لفظة تحمل مقدارًا عاليًا من الدلالات التي تؤدي إلى ما يصبو إليه الشاعر، وإذا ما قمنا باستبدال لفظة مكان أخرى فإن القصيدة تموت، وهذا يعني أن قصائده تتحلى بالوحدة العضوية الدقيقة،

---

(١) قصيدة "أنتم"، ص١٠٨.

(٢) دي. سي. ميويك، المفارقة وصفاتها، ص٦٣.

(٣) التداعي الشعري هو (تجوية للكلام، ونبش فيه، وإخراج لكوامنه، وإرساله إلى أبعد ما أنه تعدد المصدر وتراكبها، والتباس المواضع وتداخلها، والخروج من طبقة إلى أعمق منها، بما يعنيه ذلك كله من الإيغال الحفر والتبؤر). انظر: عباس بيضون، السلالة الماغوطية: قراة في شعر سوري حديث، مجلة الناقد، لندن، العدد ٣٠، كانون أول ١٩٩٠م، ص٣٦.

المرتبة بكيفية لا تسمح بالتغيير، أو النقل، أو الحذف.

وهو في قصائده تلك لم يقدم لنا (طعامًا) جاهزًا سهل التناول، بل علينا أن نُعمل عقلنا وفكرنا وذكاءنا فيه، حتى نخرج (الزبدة)، أو لب الفكرة التي يريد أن يغذّينا بها؛ ذلك لأن قصائده تحمل المعنى المبطن، ومغلفة بالشك والمفاجأة والأضداد.

ولعل ما قاله "شليكل" عن وجهي الفنان والمفارقة ينطبق على إبراهيم: "إن الإبداع الفني له وجهان متناقضان، لكنهما متكاملان. ففي الوجه المنبسط يكون الفنان غريرًا متحمسًا ذا إلهام وخيال، لكن هذا الحماس الطائش أعمى، فهو لذلك ليس حرًّا، وفي الوجه المنكمش يكون الفنان متأملًا واعيًا ناقدًا ذا مفارقة، لكن المفارقة من دون حماسة خاملة أو متكلفة؛ لذا فالوجهان معًا ضروريان إذا شاء الفنان أن يكون متحمسًا ذا كياسة، وناقدًا ذا خيال. فالفنان الذي يستطيع إبراز فعل التوازن الصعب هذا، هذا (التواتر الدائم بين الحماسة والمفارقة) ينتج عملًا ينطوي في تضاعيفه على سيرورة وجوده"(١)، إلا أني أستدرك لأقول: إن الوجه الأكثر بروزًا لإبراهيم هو الوجه المنكمش المتأمل الناقد.

بقي أن يشير البحث إلى أن إبراهيم طوقان صبّ سخريته على الجانب السياسي، وأهمل نقده للجانب الاجتماعي، وأنه سخر وتهكم من الأشخاص أكثر مما سخر من المفاهيم والقيم البالية، وأنه ما زال حاضرًا بمعنى: أننا عندما نقرأ قصائده الساخرة اللاذعة في وقتنا الحاضر، وبالذات في الأرض المحتلة، نشعر أنه كتب هذه القصائد لذات السماسرة وبعض الزعماء والصحف، وللاحتلال البغيض نفسه. وهذا

(١) دي. سي. ميويك، المفارقة وصفاتها، ص٣٦.

ما جعل قصائده (لافتة) في درب حياتنا، وطازجة كالدم، أو الأغاني، أو الصغار.

الخاتمة

هكذا قدّر لإبراهيم طوقان أن يعيش في فلسطين، في النصف الأول من القرن العشرين، حيث الانتداب البريطاني الذي حلّ محل الرجل المريض (الدولة العثمانية) المتحالف مع الصهيونية، الأمر الذي أنتج تصريح بلفور، وتسهيل الهجرة اليهودية، وتغريب الشعب الفلسطيني بشتى الوسائل عن وطنه وحضارته، ومن ثَمَّ اشتعال البؤر الثورية الفلسطينية وأشكال النضال المتاحة، وبروز القيادات والأحزاب الفلسطينية، وظاهرة بيع الأراضي من قبل السماسرة لليهود.

وعليه، فإنه من الطبيعي أن يتجه إبراهيم في شعره للواقع السياسي المضطرب، وتوابعه الهائجة المنكسرة، وظواهره المتعددة، لكن فكر إبراهيم وهو يعالج هذا الواقع كان يعاني من ثغرات عدة، جعلته فكرًا خاصًّا بإبراهيم، ولأنه لم يصدر عن عقيدة، ولم يشكل أيديولوجيا كاملة شاملة إلا أنه تميز بالنبوءة، كما أن قصائده الوطنية السياسية التي عملت على تعرية أعداء الشعب بكيفية ساخرة مرة، قد شاعت وأصبحت لافتة معروفة؛ لأنها ثمة أفكارًا وصورًا كررها إبراهيم في ديوانه مرارًا وتكرارًا بهدف التأكيد؛ مما يشير إلى أن تلك الصور والأفكار كانت على أهمية عالية عند شاعرنا.

المصادر والمراجع

(١) إبراهيم طوقان، الأعمال الشعرية الكاملة، إعداد وترتيب: ماجد الحكواتي، الكويت، مؤسسة جائزة عبد العزيز البابطين للإبداع الشعري، ٢٠٠٢م.

(٢) إحسان النمر، تاريخ جبل نابلس والبلقاء (٤ أجزاء) نابلس، المطابع التعاونية، ١٩٧٥م.

(٣) إحسان عباس، نظرة في شعر إبراهيم طوقان، مجلة الجديد في عالم الكتب والمكتبات، العدد ٦ ربيع ١٩٩٥م، لبنان.

(٤) أحمد فؤاد نجم، بيان هام، القدس العربية المحتلة، منشورات دار الفكر الجديد، آذار ١٩٧٨م.

(٥) بيان – الحوت، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، الطبعة الأولى، ١٩٨١م.

(٦) دي. سي. ميويك، المفارقة وصفاتها، ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، موسوعة المصطلح النقدي، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.

(٧) زكي المحاسني، إبراهيم طوقان، د. ت، د. ط.

(٨) سمير شحادة التميمي، حسان فلسطين (سليم أبو الإقبال اليعقوبي)، منشورات اتحاد الكتاب الفلسطينيين في الضفة والقطاع، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.

(٩) سيزا قاسم، المفارقة في القص العربي المعاصر، مجلة فصول، المجلد الثاني، العدد الثاني، يناير، فبراير، القاهرة، مارس ١٩٨٢م.

(١٠) عباس بيضون، السلالة الماغوطية: قراة في شعر سوري حديث، مجلة الناقد، لندن، العدد ٣٠، كانون أول ١٩٩٠م.

(١١) عبد المطلب صالح، دراسات في الواقعية والواقعية الاشتراكية، القدس، منشورات صلاح الدين، الطبعة التاسعة، ١٩٨٥م.

(١٢) عبد الوهاب الكيالي، وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية ١٩١٨-١٩٣٩م، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٦٨م.

(١٣) علي الخليلي، النكتة العربية (انفجارات في الأرض اليابسة)، عكا، دار الأسوار، الطبعة الأولى، تشرين أول ١٩٧٩م.

(١٤) عمر فروخ، شاعران معاصران، بيروت، منشورات المكتبة العلمية ومطبعتها، الطبعة الأولى، كانون أول ١٩٥٤م.

(١٥) عيسى السفري، فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية، القدس، منشورات صلاح الدين، الطبعة الأولى، ١٩٨١م.

(١٦) فخري صالح، أبو سمى - التجربة الشعرية، بيروت، منشورات الاتحاد العام الكتاب والصحفيين الفلسطينيين، الطبعة الأولى، آذار ١٩٨٢م.

(١٧) فدوى طوقان، الأعمال الكاملة، بيروت، دار الطليعة، ١٩٨٧م.

(١٨) فدوى طوقان، رحلة جبلية رحلة صعبة، عكا، دار الأسوار، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.

(١٩) فؤاد عزام، نظريات في الأدب، عكا، مطبعة دار القبس، آيار ١٩٨٧م.

(٢٠) فيصل قرقطي، عبد الرحيم محمود، بين الوفاء والذكرى الطيبة، مركز إحياء التراث، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.

(٢١) قسطندي الشوملي، الاتجاهات الأدبية والنقدية في فلسطين، القدس، دار العودة للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، تموز ١٩٩٠م.

(٢٢) قسطندي الشوملي، الصحافة العربية في فلسطين، ج١، القدس، جمعية الدراسات العربية، ١٩٩٠م.

(٢٣) المتوكل طه، كنوز إبراهيم طوقان، الشبكة العنكبوتية (www.books.google.com.sa).

(٢٤) مجموعة باحثين، أبحاث عن أديب العربية، القدس، مطبعة المعارف، منشورات مركز الأبحاث الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.

(٢٥) محمود غنايم، دراسة في شعر عبد الرحيم محمود، القدس، منشورات وكالة أبي عرفة، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م.

(٢٦) مصطفى العباسي، تاريخ آل وقان في جبل نابلس، شفا عمرو، مطبع دار المشرق للترجمة والطباعة والنشر، ١٩٩٠م.

(٢٧) مصطفى سويف، النقد الأدبي، مجلة فصول، المجلد الرابع، العدد الأول، ١٩٨٣م.

(٢٨) مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، بيروت، منشورات دار الطليعة، ١٩٦٥م.

(٢٩) مصلح عبد الفتاح النجار، المفارقة في شعر عرار ، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد ٣٤، العدد١، ٢٠٠٧م.

(٣٠) نعيم اليافي، تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٨٣م.

(٣١) وليد الخالدي، قبل الشتات، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية وبيرزيت، جامعة بيرزيت، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م.

فهرس الموضوعات

مقدمة .....
السيرة الذاتية للشاعر.....
مولده، ونسبه، ودراسته.....
ثقافته .....
آثار إبراهيم الشعرية.....
ما هي المفارقة.....
المفارقة والسخرية .....
صاحب المفارقة / الساخر .....
المفارقة في الأدب.....
لماذا المفارقة في شعر إبراهيم طوقان السياسي؟.....
أصول وتوجهات المفارقة عند إبراهيم طوقان .....
الموقف السياسي.....
أشكال المفارقة في شعر إبراهيم طوقان السياسي.....
الساخر و"الضحية".....
أسلوب إبراهيم طوقان في المفارقة .....
الخاتمة.....
المصادر والمراجع .....